

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة لأنه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر والملح ولا يفتي القول بنوعها لكثرة أصنافها واختلاف أشكالها وألوانها ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء وهي سمكة بالحية سواء طولها ما بين ذراع الى ثلاث أذرع، ومنها السرب وهي سمكة تصاد من بحر الاسكندرية يحدث لأكلها أحلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والاحداثات المضحكة فيها مشهورة

ومن ذلك الترسه وتسمى لجاة وهي سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير إلا ان جفنتها أعنى عظم ظهرها كالترس له أقاريز خارجة عن جسمها نحو شبر، ورأيتها بالاسكندرية يقع لحمها ويباع كلحم البقر وفي لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان وتخرج من جوفها نحو أربعائة بيضة كبيض الدجاج سواء إلا أنه لين القشر واتخذت من بيضها عجة فلما جمد صار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم، ومن ذلك السرالينس وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عزرطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يهافها الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالسيل.

الفصل الرابع

في اختصاص ما شاهده من آثارها القديمة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم ار ولم اسمع بمثله في مثلها فاقصر على اعجب ما شاهدته فمن ذلك الاهرام، وقد اكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها. وهي كثيرة العدد جداً وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن واكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط املس، وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب على يدى قراقوش بعض الامراء وكان خصيا روميا ساعى الهمة فكان يتولى عمائر مصر وهو الذى بنى السور

من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطم ، وهو ايضا الذي بنى القلعة وانبط فيها البيرين الموجودتين اليوم ، وهما ايضا من العجايب وينزل اليهما بدرج نحو ثلثماية درجة ، واخذ حجارة هذه الالهram الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة وهذه القناطر من الابنية العجيبة ايضا ومن اعمال الجبارين وتكون نيفا واربعين قنطرة . وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى امرها من لا بصيرة عنده فسد بها رجاء ان يحتبس الماء فيروى الجيزة فتقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ، ومع ذلك فلم يرو ما رجاء ان يروى . وقد بقي من هذه الالهram المهذومة قلبها وحشوتها وهي ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر فلاجل ذلك تزلزلت

واما الالهram المتحدت عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فتلاثة الالهram موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة زواياها متقابلة نحو الشرق واثنان منها عظيمان جدا وفي قدر واحد وبهما اولع الشهباء وشبهوهما بنهدين قد نهدا في صدر الديار المصرية وهما متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض . واما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع لسكنه مبنى بحجارة الصوان الاحمر المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا في الزمن الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينيك . فاذا قربت منه وافردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله ، وقد سلك في بناية الالهram طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على عمر الزمان بل على عمرها صبر الزمان . فانك اذا تبجرتها وجدت الازهان الشريفة قد استهلكمت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفهل مثلا هي غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وترجم عن سيرهم واخبارهم وذلك ان وضعها على شكل مخروط يتبدى من قاعدة مربعة وينتهي الى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله في وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة اخرى خارجة عنه يتساقط عليها . ومن عجيب وضعه انه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية

ولست كذلك عند ما تلقى السطح . وانرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذلروا ان قاعدة كل منهما اربع مائة ذراع طولاً في مثلها عرضاً ، وارتفاع عمودها اربع مائة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء وينقطع المخروط في اعلاه عند سطح مساحته عشر اذرع في مثلها واما الذى شاهده من ساحتها فان رامياً كان معنا رمى سهماً في قطر احدهما وفي سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة . وخبرنا ان في القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلاً منهم ورضخنا له بشيء فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا في الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوا به وكانت سابقة كنت أمرته أنه إذا استوى على سطحه قاسه بهمامته فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان إحدى عشرة ذراعاً بذراع اليد ، ورأيت بعض أرباب القياس قال ارتفاع عمودها ثلثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً يحيط به أربعة سطوح مثلثات الاضلاع طول كل ضلع منها أربع مائة ذراع وستون ذراعاً . وأرى هذا القياس خطأ ولو جعل العمود أربع مائة ذراع لصح قياسه . وان ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى وفي أحد هذين الهرمين مدخل يلج به الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة واسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من ياجه ويتوغلّه ، فان ناساً كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيوغلون في أعماقه ولا بد ان ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه ، وأما المسلك فيه المطروق كثيراً فزلاقه تقضى الى اعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له في اصل البناء وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقاً ، وذكر ان المأمون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى اعلاه فلما نزلوا حدثوا بهظم ما شاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفافش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طبقات . ورواينه نحو اعلاه وكأنها جمعات مسالك للريح ومنافذ للضوء وولجته مرة اخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثي المسافة فاغشى على من هول المظلم فرجعت برmq

وهذه الالهرا م مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشر اذرع الى عشرين ذراعاً وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك والعجب فى

وضع الحجر بهندام ليس في الامكان اصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شفرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صفة ولا ماهو . وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جداً حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة وقرات في بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر اغاذيمون والآخر قبر هرميس ويزعمون انها نبيان عظيمان وان اغاذيمون اقدم واعظم

وأنة كان يحج اليهما وهوئ نحوهما من أقطار الارض ، وقد وسعنا القول في المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليه ، فان هذا الكتاب مقصور على المشاهد

وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف لما استقل بعد أبيه سول له جملة أصحابه أن يهدم هذه الالهram فبدأ بالصغير الاحمر وهو ثلاثة الأثافي فأخرج اليه الخلية والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمرأه بمسكتة وأمرهم بهدمه ووكلمهم بخرا به نعيموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخليلهم ، رجالهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين ، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والإمخال ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاشطان فاذا سقط سمع له وجة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص في الرمل فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الاسافين بعد ما ينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه فيتقطع قطعاً فتسحب كل قطعة على العجل حتى تاتي في ذيل الجبل وهي مسافة قريبة فلما طال ثوائهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصيبهم ووهت عظامهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذموهين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية بل كانت غايتهم ان شو هوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة ، ومع ذلك فان الرأي لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استوصل فاذا هان الهرم ظن أنه لم يهدم منه شيء . وانما جانب قد كشط بعضه . وحين ماشاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت له لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه

هل كان يمكنكم ذلك فاقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم انصافه وبازاء الاهرام من الضفة الشرقية مغائر كثيرة العدد كبيرة المقدار حميدة الاغوار متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لهل الفارس يدخلها برمح ويتخللها يوما أجمع ولا ينهبها لكثرتها وسعتها وبعدها، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الاهرام، وأما مقاطع حجارة الصوان الاحمر فيقال أنها بالقازم وبأسوان. وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبارة ومغائر كثيرة متقنة ونراها ترى من ذلك شيئاً ألا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول

وعند هذه الاهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الارض في غاية العظم يسميه الناس أبا الهول

ويزعمون ان جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى المقياس ان تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعا، وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطرارة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما، وسألني بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت، فقلت تناسب وجه أبي الهول فان أعضاء وجهه كالأنف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فان أنف الطفل مثلاً مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوها به، كذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار وهيئة بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة. والعجب من مصوره كيف قدر ان يحفظ نظام التناسب في الاعضاء مع عظمها وانه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله

ومن ذلك الآثار التي بعين شمس وهى مدينة صغيرة يشاهد سورها محققا بها مهدوما ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم وقد كان بعض هذه الاصنام قائماً على قواعد وبعضها قاعدا بنصبات عجبية واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى اليوم وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير الانسان وغيره من الحيوان وكتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما

يرى حجراً غفلاً من كتابة أو نقش أو صورة ، وفي هذه المدينة المسلمتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون وصفة المسلة ان قاعدة مربعة طولها عشر أذرع في مثلها عرضاً في نحوها سمكا قد وضعت على أساس ثابت في الارض ثم أقيم عليها عمود مربع يذيف طوله على مائة ذراع يبتدىء من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى الى نقطة ، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها ثلثم مع وقد تزيجر بالمطر وبطول المدة أخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة ، والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت إحدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم ان حولها من المسال شيئاً كثيراً لا يحصى عددها مقاديرها على نصف تلك العظمى أو ثلثها وقلها تجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصاً بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وإنما بقيت قواعدها ورأيت بالأسكندرية مسلتين على سيف البحر في وسط العماراة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين

وأما البراني بالصعيد فالحكاية من عظمها واتقان صنعتها وأحكام سورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع أحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن الاطالة في الصفة

ورأيت بالأسكندرية عمود السوارى وهو عمود أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جداً شاق الطول ، لا يبعد ان يكون طوله سبعين ذراعاً وقطره خمس أذرع وتحتة قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام يفتقر الى قوة في العلم برفع الاثقال وتمهر في الهندسة العملية وخبرنى بعض الثقة أنه قاس دوره فكان خمساً وسبعين شبراً بالشبر التام

ثم انى رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربع مائة عمود مكسرة انصافاً واثلاثاً حجرها من جنس حجر عمود السوارى على الثلث منه أو الربع ، وزعم أهل الأسكندرية قاطبة انها كانت منتصبة حول عمود السوارى وان بعض ولاية الاسكندرية واسمه قراجا كان والياً عن يوسف بن أيوب فرأى هدم

هذه السواري وتكسبها والقائم بها على البحر زعم ان ذلك يكسر سورة المرح
عن سور المدينة أن ان يمنع من اكب العدر ان تستند اليه وهذا من عبث الولدان
ومن قول من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة

ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الاعمدة بقايا صالحات بعضها صحيح
وبعضها مكسور ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وهوود
السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطو طاليس
وشيعته من بعده وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت
خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه

وأما المنارة فخالها مشهور يغنى عن وصفها وذكر ذو العناية ان طولها مائتا
ذراع وخمسون ذراعا

وقرأت بخط بعض المحصلين انه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين
ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع
فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلاثي ذراع وطول القاعدة السفلى اثنتا
عشرة ذراعا وطول القاعدة العليا سبع اذرع ونصف ذراع ، وقاس ايضا المنارة
فوجدتها مائتي ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى
مربعة وهي مائة ذراع واحد وعشرين ذراعا والطبقة الثانية مثمثة وطولها احدى
وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلاثون ذراعا
ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع

ومن ذلك الاثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بالجيزة فوق الفسطاط وهي
منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر ، واياها عني بقوله
تعالى عن موسى عليه السلام « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » وبقوله
تعالى « نخرج منها خائفا يترقب » لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجيزة
قرية من المدينة تسمى دموه وبها اليوم دير لليهود ، ومقدار خرابها اليوم مسيرة
نصف يوم في نحوه وقد كانت عامرة في زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام
وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن بخت نصر فانه أخرج ديار مصر وبقيت
على خرابه أربعين سنة وسبب خرابه اياها ان ملكها عهم منه اليهود ، حين التجأوا

الى مصر ولم يمكن منهم بخت نصر فقصده بخت نصر و اباد دياره . ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستول عليهم وعمر بها الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى أن جاء الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك بالقسطنطين . ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك الى اليوم . وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا في الكتاب الكبير . وانرجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الامم اياها من تهيئة آثارها وحرق رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وافساد ابنتها وتشويه صورها ، مضافا الى ما فعلته فيها اربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل ويحسر دون وصفه البليغ اللسن وكلما زدت تأملا زادك عجبا وكلما زدت نظرا زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو اغرب ومهما استثرت منه علما ذلك على ان وراء ما هو أعظم فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الاخضر ، وهو حجر واحد تسع أذرع ارتفاعا فيه ثمان طولاً في سبع عرضاً قد حفر في وسطه بيت قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين والباقي فضاء البيت ، وجميعه ظاهراً وباطناً منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلي مطلعها وصور كثير من السكواكب والافلاك وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات فمن بين قائم وماش ومادرجليه وضامهما ومشمير للخدمة وحامل آلات ومشير بها ، ينهي ظاهر الامر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيآت فاضلة وأشارات إلى أسرار غامضة وانها لم تتخذ عبثاً ولم يستفرغ في صنعها الوسع لجرد الزينة والحسن ، وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعاً في المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله وثقل بعضه على بعض فتصدع صيدوعا طفيفة يسيرة . وهذا البيت قد كان في هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية جافية على أتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة . وحجارة الهرم متواصلة في جميع أقطار هذا الخراب ، وقد بقي في بعضها حيطان مائلة بتلك الحجارة الجافية وفي بعضها أساس وفي بعضها أطلال ورأيت عقد باب شاهقاً ركناه حجيران فقط وأزحجه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع

الهندام المحكم والوضع المتقن قد عجز بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع أصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرتة فطلعت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات ، بينها بايان يحمل بين الحجرين ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الاندال المغرورون فقلعوا منها ماشاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيراً من الحجارة حتى يصلوا اليها ولعمري الله قد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل في الحساسة . وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير وأما اتقان أشكالها وأحكام هيأتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فوضع التعجب بالحقيقة . فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعا وكان مداه من جهة اليمن إلى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف إلى الامام على تلك النسبة وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر كأنه لم يزد . تقادم الأيام الأجددة

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظم النظام الطبيعي والتناسب الحقيقي ، وانت تعلم أن كل واحد من الأعضاء الآلية والمتشابهة له في نفسه مقدار ما وله إلى سائر الأعضاء نسبة ما بذلك المقدار ، وبذلك النسبة تحصل حسن الهيئة وملاحظة الصورة فإن اختلف شيء من ذلك حدث من القبح بمقدار الخلل . وقد احكم في هذه الاصنام هذا النظام أحكاماً أي أحكام فمن ذلك مقادير الأعضاء في نفسها ثم نسب بعضها إلى بعض ، فأنك ترى الصنم قد يبتدىء بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ الصدر في ارتفاع التراب إلى التندوتين فيرتفعان عما دونهما ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان إلى حد الحلمة ، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم تنحدر إلى الموضع المظلم عند القص وفرجة الزور وزور القلب وإلى تجعيد الاضلاع والتوائها كما هو موجود في الحيوان الحقيقي . ثم تنحدر إلى نقاط الاضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يمينا وشمالا وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلي الاقارب ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها ، ثم الانحدار إلى الشنة والخالين وعروق الحلب والخروج منه إلى عظمى الوركين وكذلك تجد انفصال الكتف واتصاله بالعضد ثم بالساعد وانفصال حبل الذراع والذراع والكروم واطرة

المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير ذلك مما يطول شرحه ، وقد صور كنف بعضها قابضاً به على عمود قطره شبر كانه كتاب ، وصورت الغضون والأسارير التي تحدث في جلدة الكنف مما يلي الخنصر عند ما يقبض الانسان كفه ، وأما حسن أوجهم وتناسبها فعلى أكمل ما في القوى البشرية أن تفعله وأتم ما في المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق إلا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الاذن وحنجرتها وتماثيلها على غاية التمثيل والتخييل

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جداً وقد حفظ فيهما النظام الطبيعي والتناسب الحيواني مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقي جداً جداً وقد تكسرا وردما بالتراب

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاوّل الشكل ومقداره نصف الاجر السكسرى بالعراق . كما أن طوب مصر اليوم نصف أجر العراق اليوم أيضاً

وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجشهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الاذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه في ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفير العزيمة ومصابرة العمل والتدبّر من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض ، فإن النصف الأسفل من الانسان أعظم من النصف الأعلى منه اعنى التنور بمقدار معلوم ، بخلاف سائر الحيوان . والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربيع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناس والسلاميات حافظة للنظام في مقاديرها ونسب بعضها إلى بعض وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كالتخفّاض اليا فوخ عن ذروة الراس وتواء عما دونه وامتداد الجبهة والجبينين ونظام الصدغين وتواء عظمي الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف والين المسارن وانفراج المنخرين

وامتداد القوة ودقة الشفتين ، استدارة الخنك وانخراط الشكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة ، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل . وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا في المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له يدل على ان القوم كان لهم حذاقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها ، وان جميع ما أدر كوه وان جل فهو حقير تافه بالقياس الى الامر الحقيقي المطبوع وانما يستعظم ما عرفه الانسان منه بالقياس إلى ضعف قوته وبالقياس إلى باقي نوعه من بهيج عما قدر عليه ، كما يتعجب من الزملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل إذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال : من العجب أن نستحب علم أحكام التصاوير وعمل الاصنام وافراغها وتبين حكمتها ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة ولا سيما إذا قوينا على معرفة علمها ولذلك لا ينبغي لنا أن نذكره النظر في طباع الحيوان الحقير الذى ليس بكريم ولا يشغل ذلك علينا كما يشغل على الصبيان . ففي جميع الأشياء الطباعية شيء عجيب ولذلك ينبغي لنا أن نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم أن في جميعه شيئاً طباعياً كريماً ، لانه لم يطبع شيء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبخت بل كل ما يكون من قبيل الطباع فانما يكون لشيء أعنى لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة . فتبارك الله أحسن الخالقين

وأما باطن الحيوان وتجويفاته وما فيها من العجائب التى تشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الاعضاء له فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيراً ولا يجد له على ذلك ظهيراً ويعلم مصداق قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفاً

وأقول أن التعجب من الأمور الصناعية ايضاً هو التعجب من الأمور الطباعية لان الأمور الصناعية هي بوجه ما طباعية وذلك أنها حادثة عن قوى طباعية وكما أن المهندس اذا حرك ثقلاً عظيماً استحق أن يتعجب منه فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلاً تحرك تلك الصورة ثقلاً ما كان ذلك المهندس أحرى أن يتعجب منه . والله خلقكم وما تعملون فتبارك من ملكوته ، سار في عالمى الغيب والشهادة وفى أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا ينهيه حجاب ، يعلم خائنة الاعين

وما تخفى الصدور. ومن أشباح الموجودات بقدرته قائماً وبارادته متحركة وساكنة
وبنفاد أمره فيها فرحة وبقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ولتكثرها تشهد
بوحدة نيته وبغيرها تقرر بقدرته وأن من شيء إلا يسبح بحمده .

ولنرجع الى حديثنا الاول فنقول هذه الاصنام مع كثرتها قد تركتها الايام
الا الاقل منها جذاذا وغادرتها رمادا . ولقد شاهدت كبيراً منها وقد نحت من
صلعته رجا قطرها ذراعان ولم يظهر في صورته كبير تشويه ولا تغير بين ، ورأيت
صنماً وبين رجله صنم متصل به صغيراً أنه مولود بالقياس اليه ، وهو مع ذلك
كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحظة والجمال ما يشوق الناظر اليه لا يمل من
ملاحظته . واتخاذ الاصنام قد كان في ذلك الزمان شائعاً في الارض عموماً في الامم
ولهذا قال تعالى في حق ابراهيم عليه السلام : ان ابراهيم كان أمة فانا لله ضيقاً
ولم يك من المشركين أى كان وحده في زمنه موحداً فهو أمة بنفسه لا عزاله
اياهم وانفراده برأى يخالف آراءهم ، ولما رأى بنو اسرائيل تعظيم القبط هذه
الاصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها والفوا ذلك وانسوا به اطول مقامهم
بينهم ثم رأوا قوماً من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا
آلهة كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . ولما كان النصراني معظمهم وجمهورهم
أقباطاً وصابئة نزعوا الى الاصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة في اتخاذ التماثيل
في بيعتهم وهياكل عبادتهم وبالغوا في ذلك وتفنونوا فيه وربما تراموا في الجهالة
والنوك حتى يصوروا آلهتهم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من
سنين أوائلهم وان كان الاوائل يكبرون الآله أن يدخل تحت ادراك عقلي وحسي
فضلا عن تصوير ، وانما سهل على النصراني ذلك وأجرأهم عليه اعتقادهم الآلهية
للشجر وقد حققنا القول في ذلك في مقالاتنا عليهم

وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها
وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخاً يتنبه بها
على الاحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتيب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها
وذكر أهلها ففي رؤيتها خبر الخبر وتصديق الآثار . ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة
على المسأل . ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم

وصفاء ففكرهم رقيق ذلك وهذا كله بما تشاقق النفس الى معرفته وتوثر الاستماع عليه وأما في زماننا فلما فترك الناس سنتي وسرحوا هملوا وفوضت اليهم شؤونهم فتعركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل أمره منهم على شاكلة ويوجب سعيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو اليه هواه . فلما رأوا آثارها هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم وأجل الاشياء في قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل

وكل شيء رآه ظنه قدحا وان رأى ظل شخص ظنه الساق

فهم يحسبون كل علم ينوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شيء منطور في جبل أنه يفضى الى كنز وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه وهو مهلك عليه فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه وبيالغون في تهديمه ويفسدون صور الاصنام افساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف ، وينقبون الاحجار نقب من لا يتأري أنها صناديق مقفلة على ذخائر ويسربون في فطور الجبال سروب متلصص قدأت البيوت من غير أبوابها وانتهاز فرصة لم يشعر غيرهم بها

وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفا ومنها ما يدخل سحبا على الوجوه ومنها مضايق لا ينسحب فيها الا الضرب الضميل وأكثر ذلك انما هو فطور طبيعة الجبال

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك ومن كان فقيرا قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بايمان يخلفها له وعلوم يزعم أنه استأثر بهادونه علامات يدعى أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله . وما اقبل بعد ذلك ماله

وما يقوى أطماعهم ويديم أضرارهم انهم يجدون نواويس تحت الارض فسيحة الارعاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء اللحم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء الف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع في قطع دقائق ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالجمل العظيم . ومن كان يتتبع هذه النواويس من الاعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الاكفان فما وجد فيه تماسكا اتخذها ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين ويوجد بعض موتاهم في توايت من خشب

الجميز ثخين ويوجد بعضهم في نواويس من حجارة إما رخام واما صوان وبعضهم في أزيار مملوءة عسلا ، وخبرني الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الاهرام صادفوا دنا مخنوماً ففضوه فاذا فيه عسل ، فأكلوا منه فعلق في أصبح أحدهم شعره فجذبه فظهر لهم صبي صغير متماسك الاعضاء رطب البدن عليه شيء من الحلى والجوهر . وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ، وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء ، ربما وجد عنده شيء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آله التي كان يراول بها العمل في حياته . وخبرني الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين مسنا وموسى وعند آخر آلة الحجام وعند آخر آلة الخائف ويظهر من حالهم أنه قد كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آله وماله . وسمعت أن طوائف من الحبشة هذه سنتهم ويتطيرون بمتاع الميت أن يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه ماتى أوقية من الذهب ، وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فاخذة ممثنا عليهم وقد كان من سنتهم والله اعلم ان يحفل مع الميت شيء من الذهب ، فخيرني بعض قضاة بوسير وهي مجاورة لمدا فنفهم انهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفي كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاثة فكان وزنها تسعة مثاقيل ، والحكايات في ذلك اوسع من ان يحصرها هذا الكتاب واما ما يوجد في اجوافهم وادمختهم من الشيء الذي يسمونه موميا فبكثير جدا ، يحلبه اهل الريف الى المدينة ويبيع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصرى

وارانى بائعه جولقا مملوءا من ذلك فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ورايته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كلها جزء منه ، ورايت ايضا على قحف الراس اثر ثوب السخن واثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب وهذا الموميا هو اسود القار ورايته اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلصق بما يدنو منه واذا طرح على الجمر غلى ودخن وشممت منه رائحة القار او الزفت والغالب انه زفت وممر

واما الموميا بالحقيقى فشيء ينحدر من رؤس الجبال مع المياه ثم يجمد دالاً
ويخرج منه رائحة زفت مخلوط بقعر وقال جالينوس الموميا يخرج من العيون دالاً
والنفط ، وقال غيره هو صنف من القار ويسمى حيض الجبال وهذا الذى يؤ
فى تجاوزيف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وان يستعمل بدله اذا تعذر
ومن أعجب ما يوجد فى مدافنهم اصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات
وقد كفن الواحد منها فى كذا ولذا ثوباً وهو محتاط عليه محتفظ به ، وخبرنى الثقة ان
وجدوا بيتاً تحت الارض محكما ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تقمط
فازالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها عجلاً صحيحاً قد احكم تقميطة وحدثى آخران
وجدوا صقراً فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوا ، لم تسقط منه ريشة
وحكى لى مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه
ويهن ذكره

وحكى لى الامير الصادق انه كان بقوص فجاء اليه من يبحث عن المطالب فذكر
له انهم انخسفت بهم هوة موهمة ان فيها ، دفينا فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا
فوجدوا زيراً كبيراً موثق الرأس بالحص ، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالا صابراً
مكفناً بخرق فخلوه فوجدوا تحتها صيراً وهو سمك صغار وقد صار دلهباء اذا نفد
طار فنقلوا الزير الى مدينة قوص بين يدى الوالى واجتمع عليه نحو مائة رج
فخلوا الجميع حتى اتوا على آخره وهو كله صبر مكفن ليس فيه سوى ذلك

ورأيت انا بعد ذلك فى مدافنهم ببوصير من العجايب ما لا يفتى به هذا الكتاب
فمن ذلك انى وجدت فى هذه المدافن مغائر تحت الارض مبنية باتقان وفيها رمم
مدفنة ، وفى كل مغارة عدد لا يحصى ومن المغائر ما هو مملوء برمم الكلاب ، ومنهم
ما هو مملوء برمم البقر ، ومنها ما فيه رمم السنائير والجميع مكفن بخرق القنب ورأيت
شيئاً من عظام بنى ادم وقد تمشق حتى صار كالليف الابيض لقدمه ، ومع ذلك فأكثر
الرمم التى رأيتها صلبة متماسكة جداً يظهر عليها من الطراة اكثر من رمم الهاالكين
سنة سبع وتسعين وخمسمائة الا ترى ذكرها آخر كتابنا هذا ، ولا سيما ما كان من الرمم
القديمة قد انصبغ بالزفت والقطران فانك تجدها فى لون الحديد وصلابته ورزاقته
ورأيت من جماجم البقر ما شاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤس المعز

والضأن وبين رؤوس البقر والثيران ، ووجدت لحم البقر قد التصق بالآ كفان حتى صار قطعة واحدة حمراء تقرب الى السواد ، ويخرج العظم من تحتها ابيض وبعض العظام احمر وبعضها اسود ولذلك في عظام الادعى ولا شك ان الا كفان كانت تبل بالنصر والقطران وتشرب به ثم يدفن بها فلذلك يصنع اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صيغته فاحمر واسود . ووجدت في عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون في جملتها مائة الف رأس كلب او يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب فان جماعة يجعلون مكاسيهم من هذه القبور واخذ ما سئح لهم من الخشب والحرق وغيره . واستقرت جميع المواضع المحكمة فلم اجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقى ذلك في نفسى . فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى اخبارى بأنهم قد تقدمت فكرتهم في ذلك واستقروا اياه فلم يجدوه . واكثر توايبتهم من خشب الجيز وفيه القوى الصلب ومنه ما صار في درجة الرماد وخبرنى قضاة بوصير بهجائب منها انهم وجدوا ناووسا من حجر ففضوه فلقوا فيه ناووسا ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهى سام ابرص مكفنة محتاطا عليها معنيا بها

ووجدنا عند بوصير اهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقي قلبه فقسمناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمى الجيزة

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بهين شمس وبالبرانى وبغيرها

وأعلم ان الالهram لم أجد لها ذكرا فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت ارسطو ذكرها ، وإنما قال فى اثناء قوله فى السياسة كما كان من سنة المصريين البناء ، والاسكندر الأفروديسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشئ من أخبار القبط ، وأما جالينوس فرأيت ذكر الالهram فى موضع واحد وجعله من هرم الشيخوخة ، وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقراط فن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة . هذا معنى قوله ، وقال فى كتاب عمل التشريح فن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهياكلها فينبغى له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء

وأعلم أن القبط بمصر نظير النبط بالعراق ومنف نظيرة بابل والروم والاقاصير
بمصر نظير الفرس والاكسرة بالعراق والاسكندرية نظير المدائن ، والفسطاط
نظير بغداد . والجميع اليوم بعد الاسلام وتشمله دعوة بني العباس

الفصل الخامس

فيما شوهدها من غرائب الابدنية والسفن

وأما أبنيهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكانا
غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم أقبح وغالب سكنهم في الاعلى ويحملون منافذ
منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا إلا وتجد فيه باذاهيج
وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم
على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمس مائة وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار
يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وابنتهم شاهقة وينون
بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق
ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون
الكنف الى المعين فتغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح وإذا
أرادوا بناء ربيع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل
فيعمد الى العرصه وهي تل تراب أو نحوه فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح
عليه ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصه فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على
انفراده ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكامل
الاجزاء من غير خلل ولا استدراك

وأما المسناة فيسمونها الرزينة ولهم في بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر
الاساس حتى تظهر الندادة وثير الماء فينثذ يوضع ملبن من خشب الجيز أو نحوه
على تلك الارض الندية بعد ما تمهد ، ويكون عرضه نحو ثلثي ذراع وقطر حلقته
نحو ذراعين مثل الذي يعمل في قعر الآبار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قائمتين
فيصير بمنزلة التنور . فيأتي الغواصون وينزلون هذه البير ويحفرونها وكلما نبع الماء